صحافة الداخل الفلسطينيّ: بعض من تأريخ، كثير من الحنين

سلمان الناطور

قد يختلف مؤرّخو الصحافة الفلسطينيّة حول العدد الدقيق للصحف التي صدرتْ في فلسطين قبل النكبة، إنْ كان ٣٨ صحيفة أو أربعين أو أقلّ أو أكثر. ولكنْ لا يستطيع أحد أن يُنكر دور فلسطين في النهضة الثقافيّة والصحافيّة العربيّة التي ازدهرتْ في بداية القرن العشرين مع إعلان الدستور العثمانيّ الذي أجاز صدورَ صحفٍ غير تابعة للباب العالي

تنوّعت الصحافةُ الفلسطينيّة قبل النكبة فمنها السياسيّة اليوميّة: وأبرزُها **فلسطين** التي بدأتْ تصدر عام ١٩١١، ثم **الدستور**، و**الدفاع**. ومنها الساخرة الهزليّة. وكان لجريدة **الكرمل** العريقة، لمؤسّسها نجيب نصّار، دورٌ كبيرٌ في نشوء الصحف وتطوّرها وانتشارها في فلسطين وخارجها، وفي دفع أكثرها إلى اتخاذ مواقف معاديةٍ للاستعمار والصهيونيّة

معظم هذه الصحف صدر في يافا وحيفا، وتعرّض ـ شأن أغلبيّة المؤسّسات الوطنيّة الفلسطينيّة ـ للتدمير عامَ النكبة، ولم ينجُ من هذا المصير سوى **الاتحاد**: الجريدة التي صدرتْ في حيفا عام ١٩٤٤، وأُغلقتْ فترةً قصيرةً في أيّار ١٩٤٨، ثم عادت إلى الصدور لتكون جزءًا من قصة صمود قطاع من الشعب الفلسطينيّ على الرغم من التطهير العرقيّ الواسع الذي تعرّض له.

مساعٍ صهيونيّة لترويضٍ ثقافيّ

إثر احتلال القوات الصهيونيّة المدنَ الفلسطينية، وتشريدِ معظم أهاليها، وَجدتْ أنّ تطهيرَها العرقيّ لم ينجحْ بشكلٍ كامل فسعت إلى ترويض الفلسطينيين الباقين في وطنهم (ما ينوف على مئةٍ وخمسين ألفًا) ودفعِهم إلى التسليم بالدولة اليهوديّة التي تؤسّسها على أنقاض مجتمعهم. واعتمدت للوصول إلى هذا الهدف سبيلين: إرهابَهم بالأحكام العسكرية؛ وإعادةَ تشكيل وعيهم عبر إقناعهم بنهائيّة وضعهم وبتخلّي بقيّة شعبهم وأمّتهم عنهم. وقد علِمتْ أنّ الطريق الأمثل للوصول إلى غاياتها هو تدميرُ مؤسّساتهم الثقافيّة، وبناءُ أخرى تابعةٍ لها تقدّم وعيًا يتضمّن ذلك المحتوى. فأنشأتْ مؤسّساتٍ مدنيّةً خاصّةً بالفلسطينيين عُرفتْ بـ «الدوائر العربيّة،» وبنت مؤسّساتٍ ثقافيّةً موجّهةً في القرى العربيّة يسيّرها حزبُ المپاي الحاكم عبر نقابةِ العمّال العامّة (الهستدروت) و«مكتبِ الإرشاد والتنوير»؛ كما أسّستْ فعّاليّاتٍ مدرسيّة ممنهجة (الاحتفال بعيد الاستقلال مثلاً)، وصحافةً عربيّةً يرأس تحريرَها يهودٌ معيّنون من الحزب والدولة ويعمل فيها العربُ مراسلين أو محرِّرين (لصفحات اجتماعيّة) وكتّابَ مقالات

كانت الصحيفة الأولى التي أنشأتْها السلطةُ الصهيونيّة عام ١٩٤٨ هي جريدة **اليوم** اليوميّة، بالتعاون مع جريدة **دافار** العبريّة. وقد صدرتْ عن الهستدروت وأوكلتْ رئاسةُ تحريرها إلى ميخائيل أساف، عضوِ هيئة تحرير **دافار**، وكان يتْقن العربيّة، وطُبعتْ في مطابع جريدة **فلسطين** المستولى عليها. صدرتْ هذه الجريدة حتى العام ١٩٦٧، واستُبدلتْ بيوميّةٍ أخرى باسم **الأنباء** التي استمرّت حتى العام ١٩٧٨، وصدرتْ عنها أيضًا مجلةٌ أدبيّةٌ شهريّة بعنوان **الشرق** لا تزال مستقلةً حتى اليوم. وأصدرت الهستدروت أيضًا مجلة أسبوعيّة بعنوان **حقيقة الأمر**، أُغلقت في العام ١٩٦٩. كما أصدرتْ في بداية الستينيّات مجلةً أدبيّةً لم تدم طويلاً بعنوان **الهدف**، موجّهة إلى جمهور المعلّمين والمثقفين؛ ثم استُبدلتْ بمجلة **لقاء** الفصليّة الأدبيّة العربيّة العبريّة (أُغلقتْ في نهاية الثمانينيّات)

وبعد أن أصبح بإمكان العرب المشاركة في الانتخابات، انضمّت معظمُ الأحزاب الصهيونيّة إلى مساعي حزب المپاي لمخاطبتهم ومحاولة الهيمنة عليهم، عبر إصدارها صحفًا ومنشوراتٍ بلغتهم، كان أبرزها مجلة **المرصاد** (١٩٥٢ ـ منتصف السبعينيّات) لحزب المپاي الصهيونيّ الاشتراكيّ نفسه وهي اختلفتْ عن صحف السلطة الأخرى بإثارتها قضايا شغلت المجتمعَ الفلسطينيَّ سياسيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً، فنجحتْ في جذب عدد كبير من المثقفين العرب المناهضين للسلطة وللحكم العسكريّ. وفي الخمسينيّات أيضًا أصدر حزب أحدوت هعبودا صحيفةً باسم **العمل** وصدر عن حزب الصهاينة العموميين، وحزب الليبراليين، وحزب الحيروت (الذي ترأّسه مناحيم بيغن) صحفٌ عربيّة لم يدم أيٌّ منها أكثر من عامين [١]

١ ـ عمر مصالحة، «لمحة عن الصحافة العربيّة في إسرائيل،» مواقع انترنيت

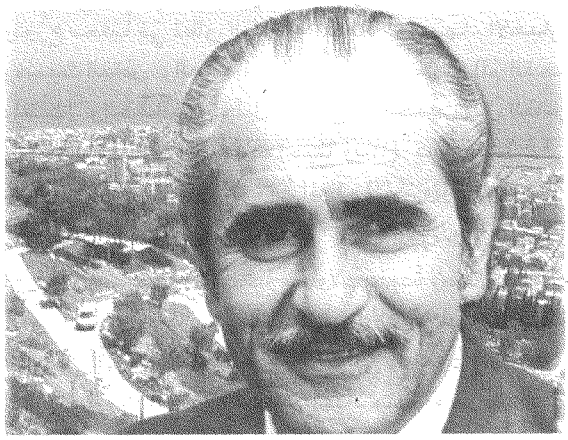

إميل توما «الأدب العربيّ في الصحف الإسرائيليّة بلا هويّة»

حتى العام ١٩٦٧ كانت صحفُ السلطة الإسرائيليّة هي الأكثر انتشارًا بين القرّاء العرب بسبب الدعم الحكوميّ والهستدروتيّ، إذ كانت توزَّع في المؤسّسات المحليّة والمدارس مجّانًا أو باشتراكاتٍ زهيدةِ الثمن. كذلك فتحتْ صفحاتٍ أدبيّةً للكتّاب العرب الذين نشروا إنتاجَهم الأدبيّ في بداياتهم، وتميّز بمضامينَ لا تحمل هويّةً وطنيّةً بل كانت «أدبًا بلا هويّة» كما وصفه د. إميل توما. ولكنْ سرعان ما أدرك العديدُ من هؤلاء أنّ مكانهم الطبيعيّ ليس في هذه المواقع التي تروّج لسياسةٍ سلطويّةٍ صهيونيّة، بل في الصحف المعارضة، وأبرزُها صحافة الحزب الشيوعيّ، وبشكلٍ خاصّ: **الاتحاد والجديد**

صحافة الداخل الفلسطينيّ تقاوم

منذ العام ١٩٤٨ لم تُترك الساحةُ العربيّة لصحافة السلطة الصهيونيّة، بل تصدّى لها ما تبقّى من الصحف العربيّة التي عكستْ مواقفَ مناهضةً للصهيونيّة فكرًا وممارسة. وكان على رأسها صحافةُ الحزب الشيوعيّ، ومنشوراتُ التيّار القوميّ الذي تمثّل في نهاية الخمسينيّات في «حركة الأرض»... مع العلم أنّ منشورات الأخير كانت دوريّةً بسبب ملاحقة السلطة للحركة ولقادتها، ثم الإعلان عنها منظمةً غيرَ قانونيّة واعتقال قادتها وإبعادهم عن الوطن.

صحيفة **الاتحاد**، التي أنشأتها عصبةُ التحرر الوطنيّ ومؤتمرُ العمّال العرب عام ١٩٤٤، أصبحت الصحيفة الناطقة باسم الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ سنة ١٩٤٩ (بعد توحيد العصبة والحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ). وفي العام ١٩٥١ أصدرت **الاتحاد** ملحقًا شهريّاً باسم **الجديد**، أصبح عام ١٩٥٤ مجلةً ثقافيّةً ـ سياسيّة. ونشر الحزب أيضًا مجلةً شهريّةً للشبيبة باسم **الغد**، ومجلةً فصليّةً نظريّةً باسم **الدرب** (طبعة الحزب لمجلة **قضايا السلْم والاشتراكيّة** التي أصدرتها الأحزابُ الشيوعيّة من براغ، عاصمةِ تشيكوسلوفاكيا) ومجلة **التقدّم** التي أصدرتها كتلةُ الحزب والجبهة في نقابة المعلّمين.

حتى العام ١٩٨٤ صدرت **الاتحاد** مرتين في الأسبوع، وفي أيّار ١٩٨٤ بدأتْ تصدر يوميّاً حتى اليوم وفي عاميْ ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ صدر عنها ملحقٌ ساخرٌ باسم **المهماز**. أما مجلة **الجديد** فقد توقّفتْ في مطلع التسعينيّات، وكذلك **الغد** و**الدرب**، وكانت هناك محاولاتٌ لإعادة إصدار هذه المجلات لكنها توقفتْ عند عدد أو عددين.

التزمتْ صحافةُ الحزب الشيوعيّ بمواقف الحزب الوطنيّة الأمميّة، وجذبتْ إليها أقلامَ المثقفين الفلسطينيين، وبينهم معلّمون في جهاز التعليم الرسميّ الذين نشروا نتاجَهم بأسماء مستعارة. وأصبحت **الجديد** منبرَ مَنْ لا منبرَ لهم في صحافة السلطة. وقد جاء في افتتاحيّة العدد الأول لها: «إننا نرجو، وسنعمل جهدَنا من أجل... أن تكون **الجديد** محورًا تتجمّع حوله أقلامٌ جريئةٌ شريفةٌ تدرك أنّ رسالة الأدب هي الارتباطُ بالنضال الثوريّ.» وحتى وقتنا الراهن لا تزال **الاتحاد** الصحيفة العربيّة اليوميّة الوحيدة التي تصدر في البلاد. ولكنها فقدتْ موقعَها كصحيفةٍ رائدةٍ بسبب ضعف المستوى، وانتشار صحفٍ عربيّةٍ أسبوعيّةٍ تجاريّةٍ منذ منتصف الثمانينيّات.

وبالعموم شهدنا في السنوات الأخيرة تراجعَ الصحف الحزبيّة. ورغم ذلك بقيتْ على الساحة، بالإضافة إلى **الاتحاد**، صحيفةُ **الحقّ والحريّة** التي تصدرها الحركةُ الإسلاميّة/الشقّ الشماليّ، وصحيفةُ **الميثاق** التي تصدر عن الشق الجنوبيّ للحركة الإسلاميّة، وصحيفةُ **فصل المقال** التي يصدرها حزبُ التجمّع الوطنيّ. وتُصدر «حركة أبناء البلد» نشراتٍ غير منتظمة، تُغيّر اسمَها تهرّبًا من قوانين النشر التي تسمح بطباعة عددين من كلّ صحيفة أو نشرة قبل الحصول على ترخيص ونجد أنّ كلّ الصحف الحزبيّة تقوقعتْ على تيّاراتها، وانحصر ـ إلى حدّ بعيد ـ الاهتمامُ بها بجمهور أحزابها، وهو ما يُعدّ تراجعًا كبيرًا عن دورها الوطنيّ والثقافيّ العامّ. وأما الصحف التجارية القطْريّة فهي **الصنّارة** و**كلّ العرب** (تصدران في الناصرة) و**بانوراما** (تصدر في الطيبة)، وهي صحافة منفتحة على كلّ مظاهر الحياة العصريّة والثقافة الاستهلاكيّة. وهناك

عدد كبير من الصحف التي تصدر في المدن والقرى العربية، وتوزَّع محليّاً في نطاق البلدة أو المنطقة، وأهمّها: **الأخبار**، **وحديث الناس**، **والعين** (في الناصرة)، **والمسار** (أمّ الفحم والمثلّث)، **والحقائق** (الجليل الغربيّ)، **والحديث وكلّ الناس** (الكرمل)، **والمدينة وحيفانت** (حيفا ويافا). كذلك أنشئتْ في السنوات العشر الأخيرة عشراتُ المواقع الإلكترونيّة الإخباريّة.

منذ توقّف مجلة **الجديد** لم تصدرْ مجلة أدبيّة شهريّة تسدّ الفراغَ الذي تركته. وكانت ثمة محاولاتٌ عديدةٌ لإصدار مجلات أدبيّة فصليّة، ولكنْ لم يُكتبْ لمعظمها الدوام، أبرزها: مجلة **مشارف** التي أسّسها الكاتب إميل حبيبي وصدرتْ بانتظام في حياته حتى العام ١٩٩٦، وصدر أعدادٌ منها بعد رحيله على فتراتٍ متقطعة، وهي حاليّاً متوقّفة عن الصدور. وصدرتْ في سنوات التسعين عن اتحاد الكتّاب العرب، برئاسة الشاعر سميح القاسم، **مجلة ٤٨**، وهي متوقفة عن الصدور ولا تزال تصدر منذ سنوات التسعين مجلةُ **مواقف** ومجلةُ **الكرمل** عن قسم اللغة العربيّة في جامعة حيفا. كما صدرتْ في العامين الأخيرين مجلتان ثقافيّتان فصليّتان هما **ميس** التي تصدر في كفرياسيف، ومجلة **الغد الجديد** التي تصدر في مجد الكروم

كان للصحافة باللغة العربيّة التي صدرتْ في الداخل تأثيرٌ كبيرٌ في صياغة الرأي العامّ الفلسطينيّ. وقد عكستْ صراعَ تيارين متناقضين أساسيين في الوعي الفلسطينيّ حتى منتصف التسعينيّات وهما: تيّار السلطة الحاكمة والخطاب الصهيونيّ الذي مثّلته صحافةُ هذه السلطة، والتيّار المناهض للسلطة والإيديولوجيا الصهيونيّة - وكانت الريادة فيه لصحافة الحزب الشيوعيّ وحركة الأرض، والتحقتْ به صحافةُ الأحزاب والحركات السياسية العربيّة التي نشأتْ تباعًا، وبينها «حركة أبناء البلد» و«القائمة العربيّة التقدميّة» و«الحزب العربيّ» «وحركة متسبين،» وبعضُ الصحف التجاريّة. ولم يبرز ذلك في مواضيع هذه الصحف فقط، بل في لغتها والمصطلحات التي اعتمدتها أيضًا:

فبينما استعملت الصحافةُ الصهيونيّةُ مصطلحَ «عرب إسرائيل» أو «الأقليّات العربيّة في إسرائيل» باعتبار فلسطينيي الداخل أقليّاتٍ طائفيّة (مسلمين ومسيحيين ودروز وبدو وشركس)، استعملت الصحفُ الوطنيّة مصطلحات «الجماهير العربيّة في إسرائيل» و«الأقليّة القوميّة العربيّة» و«الجماهير الفلسطينيّة في إسرائيل» و«عرب ٤٨» و«فلسطينيو ٤٨» و«عرب الداخل» وفي السنوات العشر الأخيرة «الأقليّة العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل» (ردّاً على اتفاقات أوسلو التي اعتبرتْ هذه الأقليّة القوميّة الفلسطينيّة الأصلانيّة شأنًا إسرائيليّاً) كذلك استعملتْ صحفُ السلطة ونشرتْ مصطلح «المناطق المدارة،» وهو المصطلحُ الرسميّ الذي أطلقته سلطاتُ الاحتلال على المناطق التي احتُلّتْ عام ١٩٦٧، بينما استعملت الصحفُ الوطنيّة مصطلح «المناطق المحتلّة.» وفي مقابل «حرب التحرير أو الاستقلال،» استخدمت الصحافةُ الوطنيّة «حرب ١٩٤٨» و«النكبة» و«عام التشريد» و«احتلال عام ١٩٤٨ » وكانت صحافة السلطة الصهيونيّة دقيقةً الالتزام باستعمال مصطلحاتٍ فرضتْها المؤسّسةُ الحاكمة، وبشكل خاصّ المؤسّسة الأمنيّة، مثل مصطلح «منظمة التخريب الفلسطينيّة» ومصطلح «المخرّبون،» بينما استعملت الصحف الوطنيّة «منظّمة التحرير الفلسطينيّة» و«الفدائيون» أو «المقاتلون » واستعملتْ صحفُ السلطة مصطلحيْ «وزارة الدفاع» و«جيش الدفاع الإسرائيليّ،» بينما الصحف الوطنيّة استعملتْ مصطلحيْ «وزارة الأمن» و«الجيش الإسرائيليّ» (أو «جيش الاحتلال الإسرائيليّ» بعد ١٩٦٧).

بقي الخطابُ الإعلاميّ الوطنيّ في تطور حتى نهاية الثمانينيّات، وبلغ أوجَ تأثيره في الانتفاضة الأولى في تلك الفترة فرضتْ سلطاتُ الاحتلال رقابةً مشدّدةً على صحف الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، ومنعتْ نشرَ العديد من أخبار الانتفاضة أما **الاتحاد** فتمتّعتْ بحريّةٍ أكبر في النشر، فقد أجاز الرقيبُ العديدَ من أخبار الانتفاضة في طيّاتها. ولأنّ الاحتلال منع توزيعَها في جميع المناطق المحتلّة، كان باستطاعة صحف الضفّة وغيرها أن تعيد نشرَها نقلاً عنها. وهكذا تحولت **الاتحاد** في سنوات الانتفاضة الأولى إلى الجريدة العربيّة الأهمّ في نشر أخبار الانتفاضة.

تراجعٌ... وتلمّسٌ لبداياتٍ جديدة

إلا أنه مع نهاية الثمانينيّات من القرن الماضي تراجع الخطابُ الإعلاميّ الوطنيّ، وهو ما ظهر في فقدان الصحف الكثيرَ من قدرتها على التأثير في الرأي العامّ. ونجم ذلك عن أسباب عدّة، منها: تزايدُ عجزها الماديّ، وتقوقعُ كلّ من الصحف الحزبيّة على خطابها التقليديّ المتزمّت، رافضةً التفاعلَ مع ضرورات التطوير؛ والتفاوتُ بين ما تقدّمه وبين احتياجات القارئ الفلسطينيّ الذي تعدّدتْ مصادرُ معرفته وثقافته بتعدّد الصحف المكتوبة ووسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والإلكترونيّة. وهذا ما يتطلب عملاً جدّيّاً وعاجلاً من أجل الخروج منه، ومواجهة مكامن الخلل، والقدرة على مجاراة التطور الثقافيّ العامّ، إنْ لم نقل تقدُّم الصفوف وطرح الأسئلة الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والإجابة عنها، حتى تعود للناس قناعتُهم بهذه المنابر وبدورها على كلّ الصعد.

المؤسف أنه بدلاً من ذلك يتحول الحديثُ عن الصحافة الفلسطينيّة في كثير من الأحيان إلى نوسطالجيا [حنين]: مثل الحديث عن الثورة والبطولات، وفي نهاية الأمر عن الوطن المفقود وبينما يَطرح الواقعُ علينا الكثيرَ من الأسئلة المحرجة، مثل «لماذا أصبحت الصحفُ العبريّة أكثرَ انتشارًا بين العرب من الصحف العربيّة؟،» تتهرّب الصحفُ الفلسطينيّة في الداخل من الإجابة، ونجد في الكثير من الأحيان أنها تخشى طرحَها أصلاً، ويهرب الكثيرُ من بيننا حرجًا منها باللجوء إلى النوسطالجيا.

فلسطين

سلمان الناطور

كاتب فلسطينيّ (من داخل فلسطين ٤٨)